The problem of Metaphysics From The Staged Progression To The Final Development

Dr. Jalal Badlat*
Noor Mashi**

(Received 18 / 7 / 2023. Accepted 11 / 10 / 2023)

□ ABSTRACT □

This article aims to clarify the term metaphysics for Kant and Hegel, as it is an original research from the investigations of German philosophy in general, and critical idealism in particular, so metaphysics was the means that helps man to reach a higher degree of knowledge as it is the philosophical research that is concerned with the search for the nature of things. The German philosopher Kant is credited with establishing the term metaphysics, so that Hegel came to complete his career in his attempt to develop metaphysics, and make it a purely rational science, and enter into all mental, religious, and historical fields. In his philosophy, Kant emphasized rational and empirical knowledge, and used the mind in order to find a scientific metaphysics instead of the traditional one. His books "Critique of Pure Reason" and "Critique of Practical Reason", and with this criticism he wanted to present a tool or means to eliminate the errors that hindered metaphysics from progress; Its reform, then, was the ultimate goal of Kant's philosophy. The critical approach that Kant followed has had a great impact on philosophy to this day. Hegel's metaphysics has an important place in his philosophical system as a rational science. He saw that Western metaphysics until the days of Kant failed to reach its perfection, and some had stopped at the reasons for the sterility of metaphysics compared to science. Hegel worked to establish an original metaphysics that transcends the previous doctrines, and deals with its ideas according to The dialectical logic that accommodates the various previous philosophical doctrines, which achieves, from Hegel's perspective, the completeness of metaphysics.

Keywords: metaphysics, criticism, controversy.

Copyright **:**Tishreen University journal-Syria, The authors retain the copyright under a CC BY-NC-SA 04

* **Assistant Professor - Department of Philosophy - Faculty of Arts and Human Sciences - Tishreen University - Latakia - Syria.**
****Postgraduate student (PhD) - Department of Philosophy - Tishreen University - Lattakia - Syria.**

إشكالية الميتافيزيقا من التقدم المرحلي إلى التطور النهائي بين كانط وهيجل

د. جلال بدلة*

نور ماشي**

(تاريخ الإيداع 18 / 7 / 2023. قبل للنشر في 11 / 10 / 2023)

□ ملخّص □

يهدف هذا المقال إلى توضيح مصطلح الميتافيزيقا لدى كانط وهيجل، باعتباره بحثاً أصيلاً من مباحث الفلسفة الألمانية عامة، والمثالية النقدية منها بصفة خاصة، فكانت الميتافيزيقا هي الوسيلة التي تساعد الإنسان على بلوغ درجة أسمى في المعرفة باعتبارها البحثَ الفلسفي الذي يختص بالبحث عن ماهية الأشياء.

يعود الفضل إلى الفيلسوف الألماني كانط في تأسيس مصطلح الميتافيزيقا، ليأتي هيجل مكملاً مسيرته في محاولته تطوير الميتافيزيقا، وجعله علماً عقليّاً خالصاً، و يدخل في جميع المجالات العقلية، والدينية، والتاريخية.

أكّد كانط في فلسفته على المعرفة العقلية والتجريبية، واستخدم العقل من أجل إيجاد ميتافيزيقية علميّة بدلاً من التقليدية، فالمسألة الأساس في فلسفته هي تأكيده على سموّ العقل، طبق منهجه النقدي على كل فلسفته، فتناول بها نظريّة المعرفة والفنّ والميتافيزيقا، ووصلت فلسفتُه النّقدية إلى النضج في كتابيه" نقد العقل المحض" و" نقد العقل العملي"، وبنقده هذا أراد أن يقدم أداة أو وسيلة للقضاء على الأخطاء التي عرقلت الميتافيزيقا عن التقدم؛ فكان إصلاحها إذن هو المقصدَ الأسمى لفلسفة كانط فالمنهج النقدي الذي اتّبعه كانط كان له أثر كبيرٌ على الفلسفة إلى يومنا هذا.

إن لميتافيزيقيا هيجل مكانةً مهمّةً في منظومته الفلسفية باعتبارها علماً عقلياً، رأى أن الميتافيزيقا الغربية حتى أيام كانط فشلت في بلوغ كمالها، و كان البعض قد توقف عند أسباب عقم الميتافيزيقا مقارنة بالعلم، فإن هيجل عمل على تأسيس ميتافيزيقا أصلية تتجاوز المذاهب السابقة، وتتناول أفكارها وفق المنطق الجدلي الذي يستوعب مختلف المذاهب الفلسفية السابقة، وهوما يحقق من منظور هيجل اكتمال الميتافيزيقا.

الكلمات المفتاحية: ميتافيزيقا، النقد، الجدل.

حقوق النشر : مجلة جامعة تشرين- سورية، يحتفظ المؤلفون بحقوق النشر بموجب الترخيص CC BY-NC-SA 04

*أستاذ مساعد- قسم الفلسفة- كلية الآداب والعلوم الإنسانية- جامعة تشرين- اللاذقية- سورية.

**طالبة دراسات عليا (دكتوراه)- قسم الفلسفة- جامعة تشرين- اللاذقية- سورية.

مقدمة:

يعدّ الفيلسوف الألماني كانط أحدَ أهمّ فلاسفة الفكر الحديث في العالم الغربي، حيث أتى بأفكار جديدة في نظرية المعرفة والعلم، وبشكل خاص موقفه من الميتافيزيقا فأنكر الفكرة التقليدية عن الميتافيزيقا.

رأى أن الميتافيزيقيا نزعة طبيعية لدى البشر، ولكنّ الميتافيزيقيين أنفسهم أساؤوا فهْمَ مشاكلهم، ولم يقدّموا ميتافيزيقا حقيقية، بناءً على ذلك استخدم كانط العقل من أجل إيجاد ميتافيزيقا علمية بدلاً من التقليدية التي ظهرت منذ أيام أرسطو، وعليه استخدم كانط النقد بكل منهجه، و رأى أنّ كل فكرة لابدّ أنْ توضع تحت اختبار النّقد لبيان أخطائها، وبعدها يُشيَّد بناء جديد سواءً في نظرية المعرفة أو الأخلاق أو الفن.

من هذا المنطلق يمكن صياغة الإشكالية المحورية في التساؤل التالي:

كيف وظف كانط أفكاره لتأسيس الصرح الفلسفي للميتافيزيقا؟ وماهي الأسس التي اعتمدها، وهل العقل قادر للوصول إلى ماهية الأشياء وطبائعها النهائية والبرهنة على موضوعات الميتافيزيقا، وهل يمكن أن تكون الميتافيزيقا علماً قائماً بحد ذاته. بحث كانط في نظريته عن القضايا التركيبية القبلية، ورأى أنّ قضايا الميتافيزيقا من هذا النوع– لأن القضايا الميتافيزيقية من حيث هي قبلية– لا تحلل تصوراتنا فقط، وإنما تضيف معانيَ جديدة تشير إلى موجودات ميتافيزيقية، رأى أنه إذا أريد للميتافيزيقا أن تكون علماً فعليها أنْ تتبع طريق الرياضيات والطبيعة.

إنّ سؤال (كيف يمكن للميتافيزيقا أن تكون علماً)، تبعه سؤال هو (كيف تكون الأحكام التركيبية القبلية ممكنة).

أتى هيغل مستكملاً مسيرة كانط في النقد ، ومحاولة جعل الميتافيزيقا علماً، فقام بإنجاز فلسفة استوعبت ما قبلها وكان للميتافيزيقا في فلسفته حيز كبير، ونظر إلى الميتافيزيقا على أنها منهج لفهم حركة التاريخ قبل كل شيء، فما التاريخ إلا سلسلة طويلة من الأفكار، ويكفي أن ندرس التاريخ قليلاً لنرى كيف تبنى كل فكرة على فكرة أقدم منها، حتى تأتي فكرة أخرى جديدة، ليستمر التطور بين مستويين فكريين، إلى أن تزيله فكرة ثالثة تحافظ على الأفضل في سابقيتها، وهذا ما يطلق عليه هيجل بالتطور الجدلي المحكوم بثلاث مراحل، القضية ، النّفي، نفي النّفي.

إن المنطق عند هيجل يمر بثلاث لحظات (الوجود، الماهية، الفكرة الخالصة)

الوجود لحظة من لحظات الفكر جردت وأصبحت موضوعاً للفكر، أما الماهية في المنطق الهيغلي ففي دائرة اللامباشرة ، وينظر إليها هيجل على أنّها أساس المعرفة العقلية الخالصة، فالوجود والماهية لحظتان من لحظات الفكر، والفكر هو حقيقتها وأساسها.

بهذا المنطق الديالكتيكي تبلغ الميتافيزيقا كمالها، وفشَلُ كانط في الوصول إلى مبادئ وشروط الميتافيزيقا الصلبة يكمن في عدم إدراكه لدور المنطق حسب هيجل، ولم يتبين أهميته الانطولوجية، فقد ظل المنطق عند كانط سجين المعرفة الأرسطية. فكانط كان يعتقد أن المنطق الصوري قد نما، واكتمل على يد أرسطو ومن غير الممكن الزيادة عليه، وكل ما قام به المناطقة بعد أرسطو مجردُ تنسيق وتنظيم لِمَا جاء به، ولم يأتوا بشيء جديد أو تقويم ما جاء به من أخطاء.

كيف يفهم هيجل المنطق ؟ وما قيمته في نسقه؟ وما الذي يجعل المنطق قادراً على الوصول بالميتافيزيقيا إلى مقوماتها الصلبة.

أهمية البحث وأهدافه:

تأتي أهمية البحث بالمكانة المهمة للميتافيزيقا باعتبارها مبحثاً مهماً من مباحث الفلسفة، فقد احتل هذا المفهوم مكانة مركزية في حياة الإنسان؛ فأصبح شغلُه الشاغلُ التمعنَ في أسرار الكون ومحاولة السيطرة عليه واكتشاف حقيقته؛ فالمحاولات الفكرية ووجهات النظر باختلافها توجهت نحو الاهتمام بالميتافيزيقا بالدراسة والتحليل والتقصي وإشارات إلى الميل الطبيعي للإنسان في البحث عن القضايا الميتافيزيقية، فالعقلُ البشري لا يكف عن البحث في القضايا الميتافيزيقية.

منهجية البحث:

اعتمدنا المنهج التحليلي في إنجاز مقاربتنا، وذلك بهدف تحليل النصوص والمفاهيم والمصطلحات الملتبسة، وتوظيف المقارنة والنقد كطريقتين في سير البحث

النتائج والمناقشة

موضوع الميتافيزيقا عند كانط:

شغل تفكير الإنسان منذ أقدم العصور البحث في أصل الموجودات وطبيعتها، إلا أنه لم يكتف عند هذا الحد، بل أراد أن يكتسب معرفة أسمى، فكان البحث في الميتافيزيقا هو الوسيلة الوحيدة التي تساعد الإنسان على بلوغ أعلى درجات المعرفة، باعتبارها المبحث الفلسفيّ الذي يختص بالبحث في كنه الأشياء.

عند البحث في ميتافيزيقا كانط نرى أنّه من الصعب أن ندرسَ ميتافيزيقا كانط وأهميتها دون الرجوع إلى الخلفية التي تأثر فيها وحاول نقدها؛ إذ رفض الميتافيزيقا التقليدية التي انحدرت إلينا من أرسطو مروراً بديكارت وليبنتز.

اهتمت الميتافيزيقا بتلك الفترة بدراسة الأنطولوجيا *[1] أطلق أرسطو على الميتافيزيقا لفظ الفلسفة الأولى و التي اهتمت بدراسة طبيعة الوجود ، وتفسير الظواهر الأساسية في الطبيعة، وأنواع الكيانات الموجودة في العالم والعلاقة بينهما، بالإضافة إلى رؤية الإنسان للكون بما فيه الوجود، ثم تحولت في العصور الحديثة إلى دراسة الابستمولوجيا أو نظرية المعرفة كما تجلت لدى ديكارت وكانط.

إن مسألة إقصاء الميتافيزيقا التقليدية ،و التي آمنت بإمكانية الوصول إلى طبيعة الله، وجوهر النفس ، اقتضت من كانط القيام بما يشبه الثورة الكوبرنيكية، التي تجلت في فلسفته النقدية، فعملَ على وضع حدود للعقل وأدواته المعرفية بمعزل عن التجربة." هل البحث في الميتافيزيقي في ذاته خرافة لا جدوى منه، أم أن لهذا البحث أصالتَه وقيمته، وإنما يقع العيب على أصحاب النظريات الميتافيزيقية؟ يرى كانط أن العيب في الميتافيزيقيين، وليس في الميتافيزيقا، ومن ثم يحاول تفادي عيوب أسلافه من الفلاسفة، وأن يضعَ للميتافيزيقا منهجاً محدداً."[2]

فهل كان من الممكن قيام ميتافيزيقا عند كانط؟ قيامُ ميتافيزيقا ممكن إذا ما كانت طبيعة العقل مزوّدة بما يسمح لها بإدراك النومين**[3] ، فهل العقل قادر على اكتناه ماهية الأشياء، وطبائعها النهائية ، العقلُ قادرٌ على البحث في

---

[1] *الانطولوجيا: علم الوجود.

[2] زيدان، محمود، كنط وفلسفته النظرية، دار المعارف، الاسكندرية،ص70.

[3] ** النومين: الشيء في ذاته وهو مالا يمكن معرفته.

الأشياء كما تسمح به قدراته، ولا تسمح قدراته إلا بمعرفة العالم المحسوس، أو عالم الظواهر لكن لا تسمح قدرتنا العقلية بمعرفة عالم الأشياء في ذاتها، وهو ما يبحث عنه الميتافيزيقي، إن نظرية النقد عند كانط حكَمتْ بالنفي على هذه إمكانية وصول العقل لإدراك حقائق الأشياء، باعتبار أن ملكة الحساسية والفهم*** [4] لا تستطيع تخطي الحسي فماذا عن العقل المحض**** [5]؛ العقل الذي يمثل المرتبة العليا في المعرفة ويحول الإدراك الحسي إلى أفكار، ولا يكتفي بإدراك ما يحيط يه وفهمه كما يفعل الفهم، والعقل بحسب كانط بحكم طبيعته يطرح أسئلة ماورائية، لكنه لن يصل بها إلى اليقينية، أو إلى النومين الكامن فيها.

لذلك قد حكم على العقل الإنساني برأي كانط، وهو أنه في جانب من جوانب عمله مشغل في أسئلة، ويتحتم عليه ألّا يهملَها، لكنه في الوقت نفسه لا يستطيع الإجابة عنها لأنها تتجاوز حدود قدرته ووحدها الرياضيات المحضة جديرة باسم العلم، أما الميتافيزيقا غير ممكنة وينتهي البحث فيها إلى الوقوع في نقائض.

2. **نقد المعرفة الميتافيزيقية:**

رأى كانط أنّ المشكلاتِ الميتافيزيقيةَ مشكلاتٌ أصلية، و تصدر من طبيعة العقل الإنساني، هذا ما يسميه كانط بالميل الميتافيزيقي.

في كتابه العقل المحض رأى كانط أن الميتافيزيقا هي العلم الذي ليس هدفُه النهائي سوى حلّ مشكلات العقل المحض، كقضايا الخلود والحرية والله، دون أن تتفحص قدرة العقل لتحقيق هذا الهدف؛ ففي محاولته لتأسيس الميتافيزيقا حرَصَ على وضع الحدود التي لا يتعداها عقل الإنسان، فالعقل غير قادر على اختراق مملكة الميتافيزيقا، و بعد نقده للعقل المحض عرف الميتافيزيقا " هي العلم الذي يهتم بالمبادئ وحدود استعمالها، التي يعينها نقد العقل نفسه"، يعني بالمبادئ هنا مبادئَ العقل، وإذا أردنا تقديم الميتافيزيقا لطريق الخلاص والنجاة، فلابدّ لنا من تقديم العقل نفسه للنقد، لذلك سمّى كانط فلسفته بالنقديّة، ومن أجل الوصول إلى محاولة مثمرة لابدّ من القيام بثورة منهجية كتلك التي قامت بها الفيزياء، عندما أدركت أنّ العقل لا يرى سوى ما يحدثه هو حول الظّاهرة، فالنقدُ ظهر لدى كانط نتيجة تطوّرٍ تاريخيّ للعقل، فأوّل مرحلة هي الدوجماطيقيةDogmatism، ثم الشكيةSkepticism إلى أن وصل إلى مرحلة النقدCriticism. الدوجماطيقية تمثل مرحلة الجمود التي تجلت في المذهب التجريبي والعقلي، فانتقد العقليين بفطرة العقل للوصول إلى المعرفة، دون الرجوع إلى الحواس، وبيّن للتجريبين أخطاءهم في ضعف نظريتهم المستمدة من الحواس لما ينتج عنها من إنكار دور العقل في الوصول إلى المعرفة اليقينية.

المرحلة الثانية من تطور النقد النزعة الشكية، تعد هذه المرحلة ذات أهمية بالنسبة إلى الدوجماطيقية، تمثلت في الفيلسوف ديفيد هيوم الذي أيقظ كانط من الدوجماطيقية ودفعه إلى الشك، وهذه النزعة الشكية تكمن في رقابة العقل، التي تؤدي إلى الشك. فرأى أن الميتافيزيقيا لا تستمد مبادئها من المعرفة الخارجية أو المعرفة الباطنية، بل هي معرفة قبلية مستمدة من الذهن المحض، ورأى أن هذه المعرفة يمكن أن نطلق عليها اسم ميتافيزيقا، وهذا ما تحدث عنه كانط في كتابه الذي حمل عنوان(**مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة يمكن أن تصير علماً**) قائلاً:" في التمييز بين الأحكام

---

[4] *** **الحساسية والفهم: الحساسية هي ملكة منفعلة عند كانط تتلقى الانطباعات الحسية والتمثلات عن طريق صورتي الزمان والمكان فتحدث فينا حقائق مستقلة عن الذهن. بواسطتها يصبح الإحساس ممكناً، الفهم: قدرة تلقائية على التفكير، وهو الذي يحيل تلك الانطباعات والتمثلات وهي مواد الحدس الحسي، لموضوع المعرفة بواسطة المقولات.**

[5] **** **العقل المحض: أي العقل الإنساني.**

التركيبية والأحكام التحليلية بعامة يجب أنْ تتألف المعرفة الميتافيزيقية من الأحكام القبلية فحسب، ذلك ما يتطلب خصوصية الطابع الخاص لمصادرها."[6]

المرحلة الثالثة هي مرحلة النقد، وهنا يبلغ العقلُ مرحلة النضج، وينتقل من الشك إلى العلم، وإقامة الدليل على صحّة الأفكار التي يتصورها الفيلسوف، أي الكشف عن المبادئ الأولية التي تستند عليها الفِكَر، ولا سيما في فكرة الميتافيزيقا لأنّها تستدعي النقد باعتبارها ليست علماً، فكانط أراد تأسيس ميتافيزيقا باعتبارها علماً كبقية العلوم، ورسم منهج قويم للميتافيزيقا العلمية التي يريد أن يؤسسها.

حصر كانط إمكانية الحصول على المعرفة في مجال عالم التجربة، فالموضوعات معطاة لنا عن طريق الحس؛ فنحن لا نرى من الأشياء إلا ظاهرها ، وأما عن طريق الفهم فتصبح الموضوعاتُ معلقة لا سبيل إلى كشفها، فالأشياء في ذاتها من خصائص وصفات جوهرية مازالت عصيّة على العقل، فمعرفتنا بالموضوع لا تكون إلا بتعاون التجربة والعقل، ورغم ذلك لا تكون معرفة بحقيقة الموضوع أو الشيء في ذاته، وإنما بالموضوع كما يظهر لنا؛ أيْ كما قدّمته لنا (الحساسية)، وصنعته مقولاتنا*[7]، وعلى هذا الأساس يميز كانط بين مستويين في معرفة الموضوع، مستوى الظاهرة وهو بإمكاننا معرفته، ومستوى الشيء في ذاته وهو مالا نعرفه ولا سبيل إلى كشفه، إلّا أنّنا مجبرون بالاعتراف بوجوده باعتباره حامل الانطباعات الحسية التي نتلقاها من الموضوع." ليس لدينا معرفة بالجانب المعقول من الأشياء بفضل التصورات القبلية، وإنما نستطيع بفضلها معرفة الجانب المحسوس منها فقط. تهدف الميتافيزيقا إلى معرفة قبلية بالأشياء، وهذا حقّ، ولكن أخفقت المحاولاتُ السّابقة حين ادّعت أنّنا قادرون بقدرتنا القبليّة على معرفة موجودات أو معانٍ مجردة كلّ التجريد عن الحسّ"[8].

يرى كانط أن تجربتنا الحسية لكي تصبح معرفة علمية عليها أنْ تترابط مع غيرها بعلاقات قبلية عقلية أطلق عليها كانط المقولات، وهي مقولات أوليّة قبلية غير مستمدة من التجربة، وتعدّ الأساسَ الذي من خلاله يتمكّن الذّهنُ من تركيب الحدوس الحسية**[9]في قضايا وأحكام.

مما تقدم نرى أنّ المعرفة هي ثمرة اتّحاد الذات بالموضوع في بناء مشترك؛ أيْ التقاء العقل ومبادئه بالتجربة ومعطياتها؛ فالعقلُ عند كانط الصورة القبلية للمعرفة، ويحتوي على مفاهيمَ ثابتةٍ، وهي اثنتا عشرة مقولة، أما التجربة فتحتوي على التغيرات، والصفات التي يكون عليها الشيء، وباتحاد العقل والتجربة تتكون المعرفة على جميع المستويات: المستوى الأول: الحساسية (بأساسها المكون من صورتي المكان والزمان) هي قدرة منفعلة تتلقى الانطباعات الحسية ، وفقاً لصورتي الزمان والمكان الذين يجعلان الإحساس ممكناً، فلا يمكننا تصور أيّ شيء وعمل أي شيء في عالم الحس، دون أن يكون امتداد للزمان والمكان، فلا توجد مادة بلا مكان، ولا يمكننا تصور أيّ شيء في هذا العالم بلا مكان.

المستوى الثاني مستوى الفهم، و يرتبط العقل بالتجربة والمقصود هنا هو العقل المنطقي.

---

[6] Immanuel Kant, prole gomena to Any Future Metaphysics, Hackett Publishing company,1772,p9.

[7] *المقولات: هي تصورات قبلية موجودة في العقل الإنساني ولا نؤلفها من خبرات حسية، كالجوهر والمكان والزمان .... إلخ، وعددها اثني عشر عند كانط.

[8] زيدان، محمود، كانط أو فلسفته النظرية، دار المعارف، الاسكندرية،ص60.

[9] **الحدوس الحسية، أي الإدراكات الحسية.

المستوى الثالث مستوى العقل الخالص؛ فالمعرفة هنا تجوب فضاء الميتافيزيقا معتمدةً على مقولات نافية المعطيات الحسية، طامعاً في المعرفة المطلقة بموضوعات لا يملك عنها أيّ معطيات حسية، وهذه المواضيع هي الله والروح والعالم؛ فالمعرفة وفقاً لكانط تبدأ بالحواس مروراً بالفهم لتنتهي بالعقل.

عمل كانط في كتابه (نقد العقل المحض) بالتوفيق بين مبادئ العقل، وما تكون عليه الأشياء في عالم الحس، ورأى أن تلك المبادئَ انعكاسٌ للعالم كله، فنحن لا نرى من الأشياء إلا ظاهرَها، أما الأشياء في ذاتها وما تحمله من صفاتٍ وخصائصَ جوهرية، فلا يتمكن العقلُ من الوصول إليها وإدراك ماهيتها، لذا رأى أن الله والعالم الميتافيزيقي خارج نطاق العالم الحسي وبالتالي عصية على العقل، بناءً على ذلك قسم العالم إلى قسمين إلى النومين مالا يمكن معرفته ولا سبيل إلى معرفته، والفينومين مستوى الظاهرة ما يمكن معرفته.

بذلك أعلن استحالة الميتافيزيقا، فالميتافيزيقا في بحثها عن موضوعات مطلقة مثل الله والحرية وخلود النفس، تجعل منها ذات طابع مفارق ويجعل مطلبها مطلباً مستحيلاً، يقول كانط:" ليس للميتافيزيقا من غاية خاصة لأبحاثها إلّا الفِكَرُ الثلاثُ الله، الحرية، الخلود،حيث إن على المفهوم الثاني أنْ يؤدّي إذا ما ربط بالأول، إلى الثالث كخلاصة ضرورية"[10].

أراد كانط أن يلتمس للميتافيزيقا طريقة للبحث يجعلها علماً على غرار علمي الرياضيات والطبيعة بأن يفرض الفروض، وذلك بطريقة منظمة ومنسقة من أجل الحصول على النتائج، فلا يمكننا القول إن الميتافيزيقا حققت المعرفة المطلوبة، لكون عالم الطبيعة و عالم الموجودات مقتصرين على التجريب، والميتافيزيقا هي علم نظري محض مستقل عن التجريب، والميتافيزيقا مختصة فيما وراء الطبيعة فهذا يؤدي إلى استحالة الكشف عنها،" على الرغم من أن الرياضيات تشبه الميتافيزيقا من حيث إنها علم نظري ينصب على بعض المفاهيم أو التصورات، إلا أن المفاهيم الرياضية تنطبق على الحدس في حين أن العقلَ عندما يعمل في مضمار الميتافيزيقا لا يكون إلا تلميذاً لنفسه."11

فما على الميتافيزيقي إلا أن يسلك مسلك علماء الطبيعة والرياضيات، باتّباع قواعدَ منظّمة بأن يفرض الفروض للوصول إلى النتائج،" لكن الميتافيزيقا لم يوافِها الحظ لتبدأ سيرها في طريق العلم، فالباحثون في الميتافيزيقا أبعدُ ما يكونون عن طريق العلم، مما يجعلها تتخبط بصورة عشوائية،"[12] فالرياضيات الخالصة، والعلم الطبيعي الخالص لا يعني بوجود أسس مفارقة لنطاق التجربة، وإنما بحثها يقتصر على شروط التجربة الممكنة، فإذا كان العلم يستدعي موضوعاً ومنهجاً وقوانينَ، فإن الميتافيزيقا تستوجب النّقد لأنها لم تستوفِ شروط المعرفة العلمية.

المنطق ودوره في بناء الميتافيزيقا عند هيجل:

تمحورت فلسفة هيجل حول فكرة واحدة هي (العقل)، فقوام منظومته الفكرية قام على مبدأ العقل، الذي تجلى في مجالات ثلاثة: العقل خالصاً في (المنطق)، والعقل وقد تحول إلى ضده إلى اللاعقل أو المادة في (الطبيعة)، وأخيراً العقل وقد استعاد نفسه في فلسفة (الروح)، لذا فإن علم المنطق هو دراسة للنسيج الذي يتألف منه العقل الخالص، الذي يستقل هو نفسه ليكوّن فرعي الطبيعة وفلسفة الروح، ويكون بمنزلة الأساس الذي ترتكز عليه بقيّة العلوم الفلسفية.

[10] كانط، نقد العقل المحض، ت: موسى وهبة، مركز الإنماء القومي، لبنان، بيروت، ص704.

[11] ابراهيم، زكريا، كانت أو الفلسفة النقدية، مكتبة مصر، القاهرة، 1972، ص118.

[12] نجيب محمود، زكي، خرافة الميتافيزيقا، مكتبة النهضة المصرية، مصر،1953،ص24.

يعرّف هيجل المنطق بأنّه" علم الفكرة الخالصة في وسطها الفكريّ الخالص"13

أيْ بمعنى أنّ المنطق هو دراسة طبيعة الفكر الخالص، أو دراسة ماهية العقل، فهو لا يدرس الأشكال والصور وحدها، وإنّما يقوم بدراستها مع مضمونِها، ومضمونُها هو الفكر، فهو دراسة للفكر من أجل الفكر وحده، فمن المغالطة في رأي هيجل القول إنّ المنطق مجردٌ من كلّ مضمون وإنه يزوّدنا بقواعد الفكر فحسب، دون أن يدرس طبيعة هذا الفكر ذاته.

يقول هيغل في كتابه **(علم المنطق)**: "عندما ينظر إلى المنطق على أنه علم الفكر بشكل عام، ينظر إلى هذا التفكير بأنه شكل من أشكال الإدراك فإن هذا المنطق لا يعتمد عليه إطلاقاً، يمكنه فقط أنْ يعطي الشروط الشكلية للمعرفة الحقيقية، ولكنّه لا يحتوي في حد ذاته على الحقيقة؛ هذا المنطق هو فقط الطريق إلى المعرفة الحقيقية، لأنّ المكوّن الأساسي للحقيقة، المحتوى، يكمن خارجها."[14]

من غير الممكن دراسة فكر هيجل دون الرجوع إلى فلسفة كانط، و التي شكلت المرجعيّة الأساسية في تأسيس الجدل الهيغلي، وعلى وجه الخصوص النسق النقدي الذي اتسمت به الفلسفة الكانطية، وفكرة الجدل الترنسندتالي، فهيغل في بداية فكره أصبح كانطياً، إلّا أنه في مرحلة لاحقة انقلب على كانط وعمل على مجاوزته وإبراز العيوب والأخطاء الذي اتسمت بها فلسفته، وبذلك اتّسمت فلسفة هيجل بالمثالية المتعالية التي توجهت نحو الذات العارفة الناقدة، وعملت على تحرير الميتافيزيقا من غطائها التقليدي، هذه المثالية سعت إلى تأسيس ميتافيزيقي جديد وتخليصها من الأخطاء التي علقت بها عن طريق آلية لا تهدم ما سبق من فكر، بقدر ما تعمل على تأليفها جدلياً بين ما تكون داخل المنظومة الميتافيزيقية.

هذه الآلية هي (الجدل)، التي رأى هيجل بأن الفكر يسير عليه بشكل دائم، فنبدأ فكرة الجدل بقضية موجبة، ثم تنفيها فكرة تمثل نقيضها، ثم تظهر فكرة أوسع تجمع بينهما في مركب واحد، إلّا أنّ هذا المركبَ يثير نقيضاً جديداً لتتكرر تلك العملية ذاتها على هذا المنوال.

إن هذه الجدلية وجدت بدايات لها في الفكر الميتافيزيقي، فكل موضوع له ضده وكل قضية لها نقيضها.؛ فالأضداد تعمل على خلق الأشياء، وخلق التاريخ، على اعتبار أنّ الفكر لا يتحقق إلا ضمن إطار التاريخ؛ فالتاريخ هو تاريخ الأفكار.

إن المذهب الهيغلي لا ينحصر في سرد الأحداث، وإنما في إبراز مظاهر المعقولية، وإدراك تعينات الفكر عن طريق الجدل، ففلسفة هيجل هي فلسفة العيني.

" وقد انطوى علم ما وراء الطبيعة القديم من هذه الناحية على مفهوم عن الفكر أسمى من المفهوم الذي أصبح شائعاً اليوم، فقد كان يسلّم بأنّ ما يعرفه الفكر عن الأشياء وفي الأشياء هو الحقيقي منها، إذ إنّ الأشياء لا تنال مباشرة، بل يصوغها الفكرُ فترقى إلى مرتبته وتصبح موجوداتٍ فكرية."[15]

ويرى هيجل أنّ المنطق قد حل محل علم ما وراء الطبيعة، فالمنطق يقوم بإدراك صيغ الفكر الخالصة، وإدراك موضوعات مثل النّفس والعالم والله؛ فالمنطق يدرس هذه الصيغ، والتحديدات بفحص طبيعة تلك الصيغ والتحديدات وقيمتها في ذاتها ومن أجل ذاتها، فعلم ما وراء الطبيعة كان متغاضياً عن هذا الفحص.

[13] هيجل، موسوعة العلوم الفلسفية، ت: امام عبد الفتاح امام، دار التنوير للطباعة والنشر، 2007،ص79.

[14] . Georg Wilhelm Friedrich Hegel, The Science of Logic, Published in united states of America by Cambridge university press, New York, 2010,p24.

[15] فرانسوا، شاتليه، هيجل، ت:جورج صدقي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق،ص49.

" فالمنطق، بالنسبة إلى الفكر الميتافيزيقي، هو الأداة التي تتيح الكشف عن قوانين الفهم بغض النظر عن أي مضمون، تسد الثغرة التي تفصل الموضوع المعروف عن الموضوع العارف."[16]

إن المنطق الهيغلي يتكون من ثلاثة أقسام كبرى: نظرية الكينونة أو الوجود، نظرية الماهية، نظرية الأفهوم أو(التصور).

أ.نظرية الكينونة: تبدأ هذه النظرية بفكرة الوجود، وهذه الفكرة تتميز بأنها أكثر بساطة وأقل تعيّناً، وهذا ما جعلها أكثر فراغاً من حيث المحتوى، ففكرة الوجود ليست بشيء على الإطلاق، وهي تساوي العدم، غير أن هذا التناقضَ يجد لنفسه مخرجاً في صيرورة هيغل، أي الانتقال من الكينونة إلى العدم ومن العدم إلى الكينونة، فالصيرورة هي أوّل فكرة عينية، أما الوجود والعدم فهما تجريدات فارغة.

إن جميع مقولات الوجود تتطور انطلاقاً من الصيرورة، يشير مصطلح الصيرورة إلى الانتقال من كيفية إلى أخرى، باعتبار أن كل كيفية تعين وجوداً (أمبيريقياً)؛ أي كائناً محسوساً، فالحركة الديالكتيكية تنتقل من الكم إلى الكيف وكلّ صفة تعين وجوداً تجريبياً، مثال على ذلك الماء، الذي يبقى سائلاً، أو يصبح جليداً أو بخاراً تبعاً لدرجة حرارته، فالكمّ مرتبط بالكيف.

إنّ الكائن الوجوديّ مزيج من الوجود واللاوجود، مثلاً الزهرة لو كانت زهرة فحسب لظلّت إلى الأبد، ولكنها تدحض نفسها بأن تذبل وتصبح ثمرة وحباً، وبذلك كلّ موجود يحتوي بداخله للاوجود الذي بفضله يتطور وينمو.

ب. نظرية الماهية:

يشير مفهوم الماهية إلى ما يقع تحت الحس، فعلى سبيل مظهر الثلج والماء السائل وبخار الماء جميعها مظاهر خارجية متغيرة للماهية الثابتة وهي (الماء) حيث إنه مطابق لذاته على الدوام.

فالمظهر الوجودي يبدو ذا جانبين؛ ينعكس الواحد منهما في الآخر و تتقابل الحدود زوجاً زوجاً، الهوية والاختلاف الشيء وخواصّه، الظاهر والباطن، القوة ومظهر تحققها، وتتنافى هذه المقولات عندما تجتمع.

" إنّ جميع المقولات التي تتقابل زوجاً زوجاً في دائرة الماهية، تجد في النهاية تأليفها في مقولة(الواقعية الفعلية) حيث تفهم الظاهرة كتجلّي الماهية تجلياً شاملاً ومطابقاً. فالواقع الحقيقي– في مقابل مجرد الإمكان أو العرض المحض هو الوجود الضروري؛ أي الضرورة العقلية."17

ج. نظرية الأفهوم:

تشتمل نظرية الأفهوم على الذات الكلّية التي تحتوي على جميع الأشياء؛ أي ما يشتمل أو ما يحوي أو ما يضمّ عليه الشيء، فهو يشتمل ما هو عيني ، فهو بمثابة الجوهر المكوّن للأشياء الخارجية، فالأفهوم هو المفهوم الذي يتسم بصفة (الكلي) إلا أنّ هذا الكلي ليس غيرَ واقعيٍّ ، وإنما هو فكرة تتعين وتصبح واقعاً وتحدّد نفسها بنفسها، وهذا أساس الحكم المنطقي عند هيجل، هذا الحكم يعمل على اتّحاد الأشياء بحقيقتها الأصلية "مثلاً سقراط فانٍ، إنّ الاستدلال يربط بين هذين الطرفين بواسطة طرف أوسط، أي إنه يضع توسطاً بين الكلّي والفردي عن طريق الجزئي، فهو يمثّل الكليّ

[16] فرانسوا شاتليه،هيجل، مرجع سابق،ص73.

[17] سيرو، رينيه: هيغل والهيجلية، ت: أدونيس العكرة، دار الطليعة، بيروت، 1939،ص30.

حيث ما يتحقق في الفردي عندما يتجزأن، أو الفردي من حيث ما يشمله الكلي بتوسط الجزئي،"[18] وعليه يعتبر هذا الاستدلال بمنزلة حجر الأساس لكل حقيقية قائمة بذاتها، فكل شيء حسب تعبير هيجل هو أفهوم.

إن مشروع هيغل المنطقي أبرز أزمة الميتافيزيقا، إلا أن هذه الأزمة لا يمكن تخطيها إلا بالمنطق الجدلي، و الذي يعبر عن قانون تطور الفكر والوجود معاً، والحركة التي تؤلف الأضداد وبالتالي يتطابق الفكر مع الواقع. فلا انفصال بين العقلي والواقعي والذاتي والموضوعي عند هيجل، على اعتبار أن العقل هو موضوع الميتافيزيقا، هذا العقل الذي يضم نسق المقولات الموضوعية ونسق المقولات الذاتية،و اللذين هما شيء واحد، وبناءً على ذلك فالمنطقُ والميتافيزيقا متحدان. . فالمنطق يتّحد مع الميتافيزيقا التي هي علم الأشياء المدركة بالفكر على هيئة فِكَر، بهذا المنطق الهيغلي بلغت الميتافيزيقا اكتمالها عند هيجل.

الاستنتاجات والتوصيات:

- وجدنا في هذا البحث أنّ فلسفة كانط امتازت بسمة العقلانية النقدية، و التي حاربت كلّ ميتافيزيقا تعلن قدرتها على معرفة الأشياء فاعتبرتها زائفة.
- اعتبر كانط الميتافيزيقا مشكلة فلسفية، وعمل على نقد الميتافيزيقا والسير بها نحو طريق العلم.
- إن كانط في بحثه عن إمكان قيام ميتافيزيقا أرجع شروط إمكان قيام المعرفة إلى الذات العارفة نفسها، ورأى أن العقل النظري عاجز عن إثبات صحة القضايا الميتافيزيقية، فلجأ إلى العقل العملي لإثباتها لكونها موضوعات ذات طبيعة فطرية.
- أشارت فلسفة كانط، إلى تراجع الميتافيزيقا أمام التطور المذهل للعلم.
- أعلن كانط استحالة الميتافيزيقا، لأنه حصر إمكانية المعرفة في نطاق عالم الحس والتجربة، ورأى أن ما وراء الواقع لا سبيل إلى كشفه.
- رأينا أن الميتافيزيقا عند هيجل هي المعرفة العقلية الخالصة، المعزولة والمترفعة عن كل ما هو تجريبي وحسي، مستندة إلى مجرد مفاهيم.
- إنّ للمنطق دوراً مهمّاً عند هيجل لتأسيس الميتافيزيقا، والذي مكنه من فهم طبيعة الأشياء فهماً سليماً، وإبراز مظاهر المعقولية وإدراك تعينات الفكر من خلال الجدل
- عمل هيجل على نقل الفكر الفلسفي الميتافيزيقي إلى العالم الواقعي، وأعطى المكانة الأولى للتفكير بغية فهم أسس المنطق الجدلي، كي تتحقق المقاربة بين ما هو واقعي وبين ما هو عقلي، لتبلغ الميتافيزيقيا اكتمالها وأوج نضوجها، لتتمكن من بلوغ الفكرة المطلقة.
- جعل هيغل للمنهج الجدلي العصب الأساسي في تأسيس فلسفته، وبالأخص فلسفته الميتافيزيقية مما أتاح لنا فهم حركة التاريخ، فالفلسفة الهيغلية بحثت عن عقلانية في التاريخ، فكل فكرة تبنى على فكرة أخرى، حتى تأتي فكرة أخرى جديدة، فيستمر التصور بين مستويين من الوعي، إلى أن تأتي فكرة ثالثة تزيلهما وتحافظ على الأفضل هذا ما أسماه هيجل بالتطور الجدلي، المحكوم بثلاث مراحل القضية، النفي، نفي النفي.

[18] سيرو، رينيه، هيجل والهيجلية، ت: أدونيس العكرة، دار الطليعة، بيروت، 1939،ص31.

Reference:

[1] محمود، زيدان، كنط وفلسفته النظرية، دار المعارف، الإسكندرية،1979، 372.

- ZIDAN, M. Kant and his theoretical philosophy, Dar Al-Maarif, Alexandria,1979,372.

[2] - Immanuel Kant; prole geomean to Any Future Metaphysics, Hackett Publishing company,1772.

[3] ايمانويل، كانط، نقد العقل المحض، ت: موسى وهبة، مركز الإنماء القومي، لبنان، بيروت،415.

- KANT, I. Critique of Pure Reason, T: Musa Wahba, National Development Center, Lebanon, Beirut,415.

[4] زكريا، إبراهيم، كانط أو الفلسفة النقدية، مكتبة مصر، القاهرة، 1927، 272.

- IBRAHIM, Z. Kant or Critical Philosophy, Misr Library, Cairo, 1972,272

[5] زكي، نجيب محمود، خرافة الميتافيزيقا، مكتبة النهضة المصرية، مصر، 1953،

- MAHMOUD, Z.N. The Myth of Metaphysics, The Egyptian Renaissance Library, Egypt,1935.

[6] هيجل، موسوعة العلوم الفلسفية، ت: امام عبد الفتاح امام، دار التنوير للطباعة والنشر، 2007، 238.

- HEGEL, Encyclopedia of Philosophical Sciences, T: Imam Abdel-Fattah Imam, Dar Al-Tanweer for Printing and Publishing, 2007,238.

[7] - HEGEL, G.W.F. The Science of Logic, Puplished in united states of America by Cambridge university press, New York, 2010,790.

[8] فرانسوا، شاتليه، هيجل، ت: جورج صدقي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق،1970، 112.

- CHATELET, F. Hegel T; George Sedky publication of the Ministry of culture Damascus 1970.

[9] رينيه، سيرو، هيجل والهيجلية، ت: أدونيس العكرة، دار الطليعة، بيروت، 1993، 112.

- CIRO, R. Hegel and Hegelianism T; Adonis aleakra, Dar altaliea, Beirut 1993,112.